من صحيح ا

تقديم

أناهيد بنت عبي

غفر الله لها ولوا

١٤٤٧ من الهجرة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنّة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الأول

مقدمة الكتاب

بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ -صلَّى الله عليه وسلّم- : "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ "

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، توكلنا على الله، نسأل الله الإخلاص والبركة ونرجوه -سبحانه وتعالى- أن يكون هذا المجلس مجلسًا تحيط به الملائكة ويذكر الله -عزّ وجلّ- أهله فيمن عنده، ونرجو منه -سبحانه وتعالى- أن ينزّل علينا البركات، وأن يحقق لنا الأهداف والأماني، فإن كتابًا مثل هذا الكتاب، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، من الكتب المنهجية العظيمة، وهو جزء من صحيح البخاري، لكن قبل أن ندخل في التفاصيل لا بد من التأكيد على أن هناك مقاصد ونيات يجب ألّا ينساها الجالس في مجالس العلم، وأهم هذه المقاصد والنّيات: أن تكون الرغبة الحقيقية التي تدفعه للحضور هي: انتظار رضا رب العالمين، وأن يُثني عليه رب العالمين في السماء، فإن هذه المجالس

مجالس يحبها الله ويحب أهلها، بل إن الملائكة تنزل إلى الأرض باحثة عن هذه المجالس، ثم إذا وجدتها جلست فيها ثم صعدت إلى السماء تُحدِّث عن مجلس القوم؛ فيُغفر لهم حتى يُغفر لمن لم يكن قاصدًا العلم، لسبب ما هو موجود في القاعة، لكن من بركات هذه المجالس أن يُغفر لكل حاضريها مهما كانت أحوالهم، ومهما كان عملهم بقصد مجملهم. فنسأل الله أن ينزل علينا البركات، وأن ينفعنا بهذه الفرص العظيمة التي تكاد أن تصبح نادرة في العالم، وهي أن يجتمع الناس على سنة النبي -صلّى الله عليه وسلّم- ويتحدثون بها ويبيِّنونها ويحرصون عليها، تكاد تكون هذه المجالس نادرة مع وجود هذه الموجات العظيمة في الفتن، نحن نحتسب على الله أن يكون في مجلسنا هذا إشهار لسنة النبي -صلّى الله عليه وسلّم- ورفع لمكانها ونسأل الله -عزّ وجلّ- أن تكون نواة تُشهِر هذا العلم، وأن يتحول هذا العلم إلى عمل! نسأله بمنّه وكرمه أن يبارك في كل من شارك في هذا العمل في تخطيطه وفي تنفيذه وفي استضافته، ونسأله -سبحانه وتعالى- أن يُنزِّل البركات علينا كحاضرين، ونسأله أن يتقبل منا أعمالنا، وأن تثمر هذه الأعمال زيادة إيمان ورفع درجات اللهم آمين!

نبتدئ بالكلام عن الكتاب الأساسي وهو: صحيح البخاري، وهذا الكتاب يكفي فيه أن نتصور فضل الله علينا بحفظ هذا الكتاب، فإن الله -عزّ وجلّ- قد أخبرنا في كتابه أنه لا بد أن يحفظ الوحي الذي أنزله على رسوله، وأوَّل ما يتبادر إلى سمعك كلمة الوحي لا بد أن يتبادر إلى ذهنك القرآن والسنة، القرآن الذي نزل على النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، ويتبادر أيضًا إلى ذهنك السنة، كلام النبي -صلّى الله عليه وسلّم- وأفعاله وحاله -صلّى الله عليه وسلّم-. الوحي هو هذه الحياة التي عاشها النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، تكلم به، ونقل كلام جبريل إلى الأمة، نقل وتمثّل أوامر رب العالمين، فهذا الوحي قد ضَمِن رب العالمين حفظه، ثم سخّر له رجالًا، رجال كالسبب لكل أمر أراده الله، والله عندما يريد أمرًا يُسخّر له أسبابه، والله -سبحانه وتعالى- يخلق بكُنْ فيكون، ويخلق بالأسباب، فمن هذه الأسباب التي حفظ الله بها الوحي:

وجود أصحاب النبي -صلّى الله عليه وسلّم- الكرام، كانوا نواة حفظ الوحي؛ ولذلك التّرضي عليهم واجب من واجبات الأمة، كونهم هم الذين اصطفاهم الله لصحبة نبيّه ومن ثمّ اصطفاهم لحفظ هذا الوحي بنوعيه: القرآن والسنة.

قصة كتابة القرآن وجمعه قصة معروف أنها جرت على يد الأصحاب -رضوان الله عليهم- جميعًا، يتخلل هذه المرحلة أنهم كانوا يُحدّثون مَن وراءهم بكلام تكلّم به النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، بأفعال فعلها النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، بأحوال للنبي -صلّى الله عليه وسلّم- ثم إن هذا الكلام الذي تكلموا به كان منضبطًا محفوظًا؛ بسبب ما كان في قلوبهم من توقير للنبي -صلّى الله عليه وسلّم-. واليوم في حال أقل من هذه الحال وأبعد عنها الناس يفعلون أمرًا يشبه هذا، فإن الأحفاد يسمعون من آبائهم ما كان يفعل أجدادهم، ويسمعون من أجدادهم ما كان يفعل آباء أجدادهم، وها نحن نتوارثها في حال أقل من هذه العظمة، ولا زلنا نقول: "كنا وفعلنا" فينقل مَن ورائنا ما كان حاصلًا قبلنا، فكيف بالأصحاب الكرام الذين اصطفاهم الله لصحبة النبي -صلّى الله عليه وسلّم-! كيف يُظن أنهم يتركون التحدث عما عاشوه مع النبي -صلّى الله عليه وسلّم-؟ كيف يُظن بهم أن يخبئوا هذا النور العظيم الذي بات محمولًا في جوانحهم؟ كيف يُظن بهم وهم الكرام الذين بذلوا جهودهم لنشر الدين بسيوفهم أن يضنّوا على الأمة بما كان بينهم وبين النبي -صلّى الله عليه وسلّم- من أحوال عامة أو خاصة؟ كيف يُظن

بالأصحاب الكرام أن يبخلوا بالعلم ولا ينقلونه لمن ورائهم؟! بل إنهم ما أن انفردوا عن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- إلّا وقد شعروا بمسؤوليتهم في نقل ما تعلموه عن النبي -صلّى الله عليه وسلّم-. وكان أعظم الشواهد على ذلك ما كان من ابن عباس -رضي الله عنه- في حرصه على أن يجمع ما يستطيع من الأصحاب الكرام الكبار؛ لأن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- تُوفِّي وابن عباس لم يُناهِز الحُلم -قد يكون عمره إحدى عشرة سنة أو اثنتي عشرة سنة-، فما أن وجد هذه الحال إلّا وقد مرّ على الأصحاب الكرام يسألهم ويستفتيهم ويجمع منهم، فكان مِصداقًا لما دعا له النبي -صلّى الله عليه وسلّم- حين دعا له الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- قائلًا: «اللهمَّ فقِّهْهُ في الدِّينِ وعلِّمْهُ التأويلَ.»[1]، وابن حزْم الظاهري يذكر أنه تتبّع فتاوى وكلام ابن عباس فوقع عنده في ستة وثلاثين مجلدًا، هذا فقط كلام ابن عباس الذي ينقل فيه كلام النبي -صلّى الله عليه وسلّم-. فهكذا تتصوّر حفظ الله لهذا الدين، حُفِظ القرآن في قصة مشهورة، ثم هذا تاريخ حفظ السُّنة. الآن في مجلسنا ليس موضوعنا الكلام عن تاريخ حفظ السُّنة، لكن هذه الإشارة لنتصور كم لله -عزّ

[1]() أخرجه البخاري (143).

وجلّ- من فضل علينا! الله الذي حفظ السُّنة، الله هو الحافظ، ثم إنه اصطفى واختار هؤلاء الأصحاب الكرام، ولتتأكد أن في ذكرهم اصطفاءً، اقرأ الآيات في كتاب الله التي تُخبرك عن مَثَلهم في التوراة ومَثَلهم في الإنجيل، هؤلاء الأصحاب الكرام قد وُصِفوا في التوراة ووُصِفوا في الإنجيل مع الخبر عن نبيّهم -صلّى الله عليه وسلّم-. نحن متأكدون من أن أهل التوراة وأهل الإنجيل يعلمون عن النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، ونعلم أنهم يعلمون عن أصحابه الكرام وأوصافهم، فهم قوم اصطفاهم الله وأخبر عنهم في الكتب السابقة، هل يُظن بهم أن يفرطوا في العلم أو يتركوه أو ألّا ينقلونه؟! لا يُظن بهم ذلك، فكون هؤلاء بهذه الصفة، هو السبب الرئيس في نقل كل هذه التفاصيل، ثم سخّر الله -عزّ وجلّ- رجالًا وراءهم، وهم المرضي عنهم والذين أثنى عليهم النبي -صلّى الله عليه وسلّم- في قوله: «خَيرُ النَّاسِ قَرني، ثُمَّ الذينَ يَلونَهم، ثُمَّ الذينَ يَلونَهم.»[2] فكانت هذه القرون الفاضلة التي سخرّ الله -عزّ وجلّ- منهم رجالًا لأجل حفظ هذه السُّنة، وأنت في واقعك اليوم انظر كيف أن بعض الناس تُشرح صدورهم لبعض العلوم، فتجد أحدهم مُحبًّا

[2]() أخرجه البخاري: (6695).

مقبلًا على كتاب الله وعلى سنة النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، أو محبًّا مقبلًا للحفظ، أو جالسًا متخصصًا في أن يُقرئ الناس القرآن، أو مهتمًا جدًا بالقراءات، فانشراح الصدور هذا إنما هو أحد أجزاء إيماننا، بأن الله حافظٌ لدينه، وهكذا يستمر الحفظ إلى أن يأتي رجل من فارس، وفارس يُقصد بها الجِهة التي هي من وراء النهر، هذه يُشار إليها بأنها فارس، والنبي -صلّى الله عليه وسلّم- قد أشار إلى هذا في حديثٍ قال: «لو كان العِلمُ بالثُّرَيَّا لتناوَله أُناسٌ من أبناءِ فارسَ»[3]، وفي رواية: «لَو كانَ الإيمانُ مُعَلَّقًا بالثُّريَّا لنالَه رجالٌ من أبناءِ فارسَ»[4]وفي رواية أخرى كان النبي -صلّى الله عليه وسلّم- يحضُره سلمان -رضي الله عنه- فقال: «لو كان الإيمانُ عِندَ الثُّرَيَّا لَناله رِجالٌ مِن هؤلاء»[5] إشارة إلى سلمان -رضي الله عنه- وقد كانوا.

(لو كان العِلمُ بالثُّرَيَّا) إشارة إلى بُعده، (لتَناوَله أُناسٌ من أبناءِ فارسَ) يعني لتَناوله رجال من فارس وقد كان، فجمع البخاري صحيحه ومثله مسلم ومثله الترمذي، فأصحاب الكتب الستة خمسة منهم من تلك الديار، وقد عُلِم أن من طباعهم الصبر

---

[3]() أخرجه البخاري: (4897).
[4]() أخرجه مسلم: (2546).
[5]() أخرجه مسلم: (2546).

والدقة والبحث، فكان هذا أنسب لطباعهم. فقط أبو داود من أصحاب الكتب الستة العربي، أما البقية فإنّما هم من تلك الجِهة، وقد جعل الله فيهم البحث والجهد والجِدّ، فكان مِصداقًا لحديث النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، فهل يُعقل أن يرسل الله رسولًا خاتمًا ليس بعده رسول، ويَعِد بالحفظ للدين ثم لا يُسخِّر الأسباب لحفظ الدين؟! هذا ضعف في الإيمان! لو شعرت أن الله أرسل رسولًا، وأنزل كتابًا، وجعله الخاتم، ووعد بحفظه ثم لم يحفظه! بل إن الله قد سخّر الأسباب، وهذه الأسباب تبتدئ من الرجال وتنتهي إلى كل هذه الأدوات الحديثة لحفظ السُّنة، التي منها المطابع فيما مضى، وقد بدأت المطابع الهندية وقت الاحتلال البريطاني، فكان أول إنتاج لها كتب الحديث، وكان الحديث في الهند قد أخذ بابه العظيم، حتى طُبع فيها كتاب "كنز العمال" وهو اسم على مسمى، فكل من أراد أن يعمل فهذا كنزه، قد تتكون الطبعة الأولى من أربعة وثلاثين مجلدًا.

المقصد أنه بمجرد أن ظهرت الأدوات الحديثة، نهض أهل الإسلام للطباعة، واليوم أصبحت ترى هذا أيضًا، بمجرد أن ظهرت التطبيقات الحديثة نهض أهل الإسلام والحمد لله، وهذا كله إشارة إلى أن وعد الله حق وأن هذا الدين سيُحفظ.

لكن هذا يحملنا مسؤولية أخرى، الدين اليوم محفوظ بين دفَّتي الكتب، محفوظ في هذه التطبيقات. لكن ليس هذا الحفظ المقصود وإنما هذا حفظ الوسيلة، يعني أن الله حَفِظ الدين في هذه الوسائل، بقي أن يكون محفوظًا في الصدور، بقي أن يكون هناك من هو قائم به، شاكر لنعمة الحفظ، فنسأل الله أن نكون نحن وذرياتنا من الشاكرين حقًا على نعمة الحفظ، الراغبين حقًا في هذه السُّنة المباركة، ثم إن من أبواب نشر هذه السُّنة مثل هذه الاجتماعات -نسأل الله أن يبارك ويحفظ!- ومنها أيضًا أن تتعرف على كتب السُّنة. البخاري قبل خمس عشرة سنة أو أكثر، ومثله بقية الكتب الستة طُبعت طباعةً فاخرةً في جزء واحد بعدما كانت أجزاءً، وطباعة مباركة ونافعة الحمد لله، فكيف لعينك ألّا تقع على أحاديث النبي -صلّى الله عليه وسلّم- والأمر في متناول اليد؟! وقد ذُكر عن الترمذي في ذاك الزمان الذي كان يصعب فيه النسخ والنقل، أنه قال عن كتابه: "صنفت هذا الكتاب، فعرضته على علماء الحجاز، والعراق، وخراسان، فرضوا به، ومن كان في بيته هذا الكتاب، فكأنما في بيته نبي يتكلم" لهذه الدرجة! يعني كلما احتجت شيئًا فتحت ووجدت، فكأن معك النبي -صلّى الله عليه وسلّم-؛ ولذلك مسؤوليتنا هي

الشكر على النعمة، لكن الشكر لا يكون باللسان فقط، وإنّما بالعمل. مثلًا انظر إلى يوم استراحة الناس اليوم، يوم الجمعة، وهو يوم عيد المسلمين الأسبوعيّ، فيمكن أن يكون فيه نقل لهذا الميراث بقراءة بسيطة بينك وبين من تستطيع أن تقرأ معه من ذريتك أو من أهلك عن قريب وعن بعيد، فتغتنم ذلك الوقت في الصلاة والسلام على رسول الله كلما ذُكر، ويتضمن هذا فعليًا شكر حفظ هذه النعمة، فلنكن حافظين ليُنقل العلم منا لمن بعدنا.

وبمناسبة ذكر المطابع الهندية أودّ أن أقول لكم إن الهند قبل أكثر من مائة وخمسين عامًا كانت معْقِل التوحيد والسنة، من كان يريد أن يتعلم السنة يذهب للهند! كانت أحد الرايات للدفاع عن التوحيد، ثم اليوم أنت تعلم ماذا أصبحت الهند، وتعلم أن فيها أديانًا بعدد أيام العام! في أقل من مائتي سنة حصل هذا الأمر! وأحد الأسباب المهمة جدًا لتصور هذا الأمر هو: أن الأوَّلين لم ينقلوا للتالين، فالنهر الجاري تعثّر وجفّ، فمن المؤكد أنه سيظهر بدلًا من هذا النهر الجاري ما تعلمون من الحشائش والقاذورات، تقذّر الوادي بأفكار الشرك، وهذا هو الذي يُخاف دائمًا منه، وحتى لا نذهب بعيدًا فهذه الجزيرة العربية التي هي موقعنا الآن قبل مائتي سنة -يعني نفس التاريخ التي كانت فيه

الهند معقِلًا للتوحيد والسُّنة- كانت هذه الجزيرة معقِلًا للشرك، ثم شاء الله أن يُسخر المجددين فيزيلون هذا الشرك ويأتي التوحيد، لكن إذا ما حفظ الجيل للجيل الذي يليه الحق سيعود الباطل، ولا أحد منّا يتمنى أن يكون أحد من ذريته في النار! بل نحن ندعو ليلًا ونهارًا ونقول: "اجعلني للمتقين إمامًا!"، وأقرب المتقين الذين نودّ أن نكون لهم إمامًا هم ذرياتنا، فالدعاء وسيلة، لكن ليست الوحيدة، لا بد أن يكون عَضُضًا لها النقل ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، نسأل الله أن يعيننا وييسر لنا، ويجعلنا مباركين! فإن البركة إذا حلّت على قوم انتفعوا بقليل السبب، وإذا نُزعت من قوم مهما كثُرت الأسباب لا تجد ثمرة، فنسأل الله أن يبارك لنا في جميع ما أنعم به علينا من وسائل العلم وانشراح الصدر!

أسأل الله أن يشرح صدورنا وصدور ذرياتنا، ويجعلنا مباركين أينما كنّا، منتفعين بما يسِّر لنا اللهم آمين، نرجو من الله أن يكون هذا المجلس مجلسًا مباركًا فاتحًا لهذا الخير العظيم، ومن المؤكد أن هناك مشاريع هنا وهنا في حفظ السُّنة، نسأل الله أن تُتوَّج بجيل يُعظّم رب العالمين ويُعظّم ويوقر النبي الكريم، ويسير على منهجه، وينجو من النار، ونكون نحن سببًا لنجاته اللهم آمين.

الآن ستكون قراءتنا لكتاب الاعتصام قراءة إجمالية؛ لأننا متفاوتون في مستوى العلم، والحمد لله هذا الباب وغيره من أبواب صحيح البخاري قد كثُر شرحها سواء في كتب أو في تسجيلات، فها هي الأسباب يسيرة، فمن أراد بالاستزادة فيمكنه ذلك، والمقصد الرئيس هو: الإضاءة. فقط نريد أن نُكوّن إضاءة ونُسلّط إضاءة على أهمية قراءة السُّنة وعلى مفهوم التمسك بها، والتحذير من تركها، وزيادة الشعور بأنها حبل النجاة، وهذا ما نحققه عن طريق قراءة هذا الكتاب.

مناقشة اسم الكتاب:

كتابُ الاعتِصَام بِالكِتابِ وَالسنّة

← هنا سنناقش أولًا نقطتين في كلامه: (كتابُ الاعتِصَام بِالكِتابِ وَالسنّة).

أما النقطة الأولى فهي: إشارة إلى أن البخاري -رحمه الله- ألّف كتاب الاعتصام مفردًا، لديه كتاب مفرد اسمه الاعتصام مثل كتاب الأدب المفرد، هو كتاب مفرد مستقل خارج الصحيح، فوسّع فيه العبارة وأكثر فيه النقل، ثم لخّصه

واختصره وأدخله ضمن الصحيح، وهذه طريقة البخاري، أنه في باب معين يرى أنه مهمًا، يجمع كل النصوص الممكنة ثم يأتي إلى شرطه حتى يجمعه ويجعله على شرطه ويُدخله في صحيحه.

النقطة الثانية: ننتقل لمعنى كلمة الاعتصام. الاعتصام: على وزن افتعال من العصمة، وهو مصدر للفعل الخماسي اعتصم، يعني: اعتصم، يعتصم، اعتصامًا، والتاء في اعتصم طلبية، مثل: استغفر. يعني: طلب المغفرة، استرزق: طلب الرزق، اعتصم. يعني: طلب العصمة.

ما المقصود بطلب العصمة؟ طلب ما فيه عصمته من الضلال والانحراف، وهو مُنتزَع من قوله تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ)[6] هذه آية الحج، وآية آل عمران: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا)[7] اعتصموا بمعنى: اطلبوا العصمة في حبل الله وفي توفيق الله وفي شرع الله.

من أي شيء نطلب العصمة؟ من أمرين:

الأمر الأول: نطلب العصمة من الضلال والانحراف والخطأ.

---

[6]() الحج: 78.

[7]() آل عمران: 104.

سواء كان هذا الانحراف انحرافًا أكبر مثل الشرك -والعياذ بالله-، والكفر، والبدعة أو ما أقل منه حتى في المعاصي وما يتصل بها.

الأمر الثاني: نطلب العصمة من الاستدلال الخاطئ أو الاستدلال المنحرف.

يحتاج الإنسان إلى أن يعتصم لكيلا يستدل استدلالًا يوافق هواه، والإنسان دائمًا يكون أمام اختيارين في كل مسألة، وفي كل مسألة يكون للناس هوى فيها، وهناك من يفتي لهم وفق هواهم، فإذا طُولِبَ المفتي بالدليل على ما أفتى، أو طُولِبَ التابعون له بالدليل تجدهم يستدلون بالمتشابه من الآيات، أو بالمتشابه من حديث النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، أو بالمتشابه حتى من فتاوى أهل العلم! فتجد أحدهم يبحث إلى أن يجد فتوى موافقة لهواه، وقد تكون الفتوى لموضوع آخر أو لملابسات أخرى!

وهذه أزمة كبيرة؛ لأنه في كثير من الأمور التي نواجهها اليوم، لا تجد فيها كلمة حلال أو حرام، بل تجد فيها شيئًا عميقًا يخالف مقاصد الدين، يخالف سُّنة النبي -صلّى الله عليه وسلّم- بالإجمال، يخالف مقاصد الشريعة، يخالف روح الشريعة؛ لأن

الهوى حاكمٌ، فماذا يريد الناس منك؟ يريدون كلمة واحدة، يقولون لك: "قل حرامًا، أو قل حلالًا!" ثم إذا قلت لهم: "حرامًا" يقولون لك: "ما الدليل؟" هم يطالبونك بالدليل الذي يصعب عليك شرحه وفهمه؛ لأنه ليس نصًّا، وإنما مقصدًا من مقاصد الشريعة، فيريد منك أن تأتي بدليل على كل كلمة إنها حرام، وإلا يصبح هذا الموقف دليلًا له على أنها حلال! وبذلك ندخل في مشكلة عظيمة في التسيُّب، وكما يعبرون اليوم: السيولة واللّامعيارية، لا يوجد معيار يضبط أهل الإسلام! والله حدَّ حدودًا، واقرأ في القرآن عن متعدي الحدود ما إثمهم؟ وانظر كيف ضرب النبي -صلّى الله عليه وسلّم- مثلًا واضحًا عندما أخبرنا: «إنَّ الحلالَ بيِّنٌ وإنَّ الحرامَ بيِّنٌ وبينهما أمورٌ مُشتبِهاتٌ لا يعلمهنَّ كثيرٌ من الناس فمنِ اتَّقى الشُّبُهاتِ استبرأ لدِينِه وعِرضِه، ومن وقع في الشُّبهاتِ وقع في الحرامِ، كالراعي يرعى حول الحِمى يوشكُ أن يرتعَ فيه»[8]. النفس كذلك مثل هذه البهيمة التي إذا رعت حول الحمى وقعت فيها، هذا لديه حديقة، مزرعة، ولديه سور حول المزرعة، ومن سور المزرعة تتدلى الأشجار، إن أتيت بالبهائم واقتربت من الحمى

[8]() أخرجه البخاري: (52).

إلا ورفعوا رأسهم وأكلوا من حديقة الرجل! إلا أكون قد ورطت نفسي. فهنا لو خرج صاحب الحديقة وقال: "لمَ أكلت من زرعي؟!" هل لصاحب البهيمة أن يقول: "أنا لم أدخل حديقتك!" هل هذا كلام يُقبل؟ هل له أن يقول: "هذا الأمر حصل رغمًا عنّي، ما كان بيدي!"؟ يقال له: "مَن قال لك أن تقترب من الحِمى؟" وهكذا في الأحكام الشرعية؛ ولذلك هذا الباب يشير إلى هذا المعنى بعمق، لا تأتِ إلى الشريعة وتريد منها أن تنطق لك كلمة كلمة في كل حكم أن هذا دليله، وإنما الشريعة لها مقاصد فراعِ مقاصدها؛ ولذلك الله -عزّ وجلّ- نهى النساء أن يخضعنَ بالقول، ماذا يحصل لو خضعت بالقول؟ هي لا تعرف الأطراف الثانية، فهناك قلوب فيها مرض قد تؤذيها. والنهي عن الخضوع بالقول يشمل الكلام المباشر، والكلام من وراء حجاب، والكلام بالجوال، وفي المحادثات، المحادثات التي من وراء أي وسيلة من الوسائل، فلا يلزم صوتها فكتابتها تكفي! فيأتي من يقول لك: "(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ)[9] يعني وقتما تتكلم فيسمع صوتها، فيغتر بها"، ويقول لك: "الأُذن قد تعشق قبل العين أحيانًا، فطالما لا يوجد صوت الآن، وهي فقط تكتب، فلا

[9]() الأحزاب: 32.

حرج!"، ويُفتح باب الفتن! فمثل هذا يريد بأن تنطق الشريعة الحكم بالتفصيل وتنهى المرأة عن الكتابة!

أنا أضرب هذا المثال لأنه واضح في عقولنا فيسهُل أن نقيس عليه، أريد أن تتصور إذا جاء شخص يعارضك في هذا ويقول: "مراسلة الرجال لا تعتبر خضوع بالقول! ما رأيك فيمن يقول هذا الكلام؟ لا يحسن القياس؛ لأن الشريعة أرادت أن تمنع الذي في قلبه مرض من أن يجد شيئًا يتعلق به، فالكلمة المسموعة مثل الكلمة المكتوبة في الأثر.

فمثل هذا الشخص ستجده يريد نصًّا يقول: "إن هذا حلال" و "إن هذا حرام!" لا بد أن تشعروا أن هذه مشكلة كبيرة، أننا في كل مرة نريد أن تأتي الشريعة وتنطق حرفيًا بالدليل فيما يخص الواقع الذي يعيشه الناس، بل أكثر من ذلك إشكالًا، أنه عندما يُفتي من تثق في علمهم -أحيانًا تجد لجانًا معروفة بالتقوى والخوف من الله- قد يفتون فتوىً على خلاف ما يهواه الإنسان، أو خلاف ما اشتهر، فيأتي أحد هؤلاء ويقول: "هؤلاء ما دليلهم؟!" لا بد أن تعلم أن الدليل ليس شرطًا أن يكون ناطقًا بالمسألة، فإن هناك مقاصد للشريعة. فنحن نريد أن نعتصم بالكتاب والسُّنة لكيلا ننفلت ولا نقع في الآثام، فمن جهة: لا نقع

في الضلال والانحراف من جِهة نفْس الضلال والانحراف، ومن جِهة أخرى لا نقع في الضلال في الاستدلال. ومسألة الاستدلال وخطورته سيهتم بها البخاري في كتاب الاعتصام، وأريد منكم أن تقارنوا بين زماننا والزمان الذي كان فيه البخاري، ومع ذلك المشكلة ظاهرة وتزداد مع الزمان.

انتهينا من الكلام حول مسألة الاعتصام،

- علمنا ما معنى الاعتصام وأنه مأخوذ من قوله تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا)[10] ومن الآية الأخرى التي في سورة الحج.
- وعرفنا أن الاعتصام إنما يكون بحبل الله الذي هو الكتاب والسُّنة.

بقي أن نقول إن الاعتصام لا يكون له حقيقة إلا إذا حصل التمسّك الشديد مع الخوف من الانفلات، يعني لا تكون معتصمًا عندما تُمسك الأمر بطرف يدك، بل تكون معتصمًا إذا تمسّكت بقوةٍ مع خوف، خوف من أن تنفلت. الاعتصام هو طلب العصمة، ستطلب العصمة بكونك تمسك حبل الله؛ لأن الله قال: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا) حبل الله هو الكتاب والسُّنة

---

[10]() آل عمران: 104.

الممدود لك من السماء، مطلوب منك التمسُّك، لا بد أن يكون هناك صفتان في إمساكك له: الأولى: القوة، والثانية: الخوف. مم تخاف؟ تخاف من الضلال، لا بد أن تخاف من الضلال، شعور الطمأنينة يخالف المطلوب منّا وقتما نقرأ التحيات، ثم نقرأ الصلاة الإبراهيمية، ثم نستعيذ من أربعة: عذاب القبر، وعذاب النار، وفتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال. كونك لا تخاف يعني أنك لا تشعر بهذا الكلام ولن تهتم به. أنت عندما تدعو بلسانك لا بد أن تكون شاعرًا بهذا الأمر، وفاعلًا ما يساعدك على هذا الأمر، من يقول: "يا رب ارزقني ذُريّة!" وهو لم يتزوج! ماذا نفعل به؟ نزوّجه؛ لأن الله جعل لكل شيء سببًا، لو ظلّ يدعو ليوم الدين بدون زواج فلن يأتيه ولد؛ لأنه لم يأخذ بالسبب الذي يأتي من ورائه الولد! بنفس الطريقة من يقول: "أعوذ بك من عذاب النار، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال" لا بد أن يأخذ بأشياء تقيه من هذه الفتنة، فمتى نأخذ أشياء تقينا من هذه الفتنة؟ إذا كنا خائفين، طالما يشعر الإنسان بالطمأنينة وأن هذه الأشياء لا تخيفه، معنى ذلك أنه ما فهم معنى الاستعاذة. الاستعاذة عبادة، ما من عابد لله بعبادة الاستعاذة يأخذ أجرها إلا

إذا كان خائفًا حقًا، من لا يخاف يقول كلامًا باردًا! كأنه لا يشعر بالخطر، لا يشعر بأنه مفتون وأنه قابل لأن يُفتن! وهذا خطر! أن تشعر أنك لن تُفتن؛ لأنه لو لم يوصينا نبينا -صلّى الله عليه وسلّم- ولم يأمرنا في كل صلاة أن نستعيذ لقلنا: "لا بأس اطمئن." لكن بما أنه أمرنا وجعل هذه الاستعاذة من العبادات، وأوصانا بها في كل صلاة، يصبح المقصود أن تخاف لتصدق في الاستعاذة، فالاستعاذة عبادة، والعبادة لا بد أن يكون لها أركان، أيّ عبادة قلبيّة لا بد أن يكون لها أركانها، ومن أركانها: الشعور؛ ولذلك من ركائز العبودية: الخوف، الرجاء، المحبة. وبهم تحصل العبادات، فطالما نشعر أننا في المكان الصحيح فلن نخاف، لن نخاف إلا إذا شعرنا أننا في خطر، والنبي -صلّى الله عليه وسلّم- ما أمرنا بالاستعاذة إلا لأن الخطر محيط بنا، ثم أن زماننا يشهد بالخطر، لا نحتاج للتفكير في النصوص، فقط انظر للواقع، انظر للمفتونين والناس الذين كانوا معنا في نفس الطريق ثم اليوم في طريق آخر -نسأل الله أن يثبتنا جميعًا، ويرد المسلمين إلى الطريق المستقيم!-.

الشاهد: أننا إذا أردنا أن نعتصم لا بد أن نكون شديدي التمسك، نشعر بالخوف. فهذه صفات المعتصم، الاعتصام حبل

من السماء وأنت في الأرض، اعتبر نفسك خائفًا من الغرق وتمسّك بالحبل الذي أتاك من السماء، واعلموا أن المستغيث والمعتصم لا يفلح في اعتصامه إلا إذا توجّه إلى الله. يعني أنا أحتاج إلى التمسك الشديد، وأحتاج إلى الخوف، وأحتاج إلى الدعاء الذي هو الاستغاثة بالله.

ثم إننا نحتاج أيضًا أن نجعل الإيمان مقصدنا وأهم ما نملك، لا بد أن نشعر أن إيمان قلبنا هو أهم ما نملك، فنطلب حفظه وزيادته ونهتم به ونفكر فيه، الإيمان هو الجوهرة التي يحملها الإنسان، سبب تفاوت الناس هو إيمانهم، سبب اختلاف مواقف الناس هو إيمانهم، سبب انتفاع الناس من كتاب الله وإقبالهم على سنُّة النبي-صلّى الله عليه وسلّم- هو إيمانهم، بل إن الفرق بين المؤمن والمنافق هو الإيمان، كلهم في الظاهر سويًا في المجالس، في المساجد، في أماكن الدين، كلهم مثل بعضهم، ثم يفترقون بسبب الإيمان، فالإيمان هو الجوهرة التي يحملها الإنسان، فأنت عندما تكون معتصمًا، خائفًا، مستغيثًا، مجتهدًا، لا بد أن يكون الذي يهمك هو الإيمان، الإيمان لا بد أن يكون شاغلك، المحافظة عليه لا بد أن تشغلك وتكون مقصدك، يعني إذا دخلنا مجالس علم وإذا جلسنا في أي مجلس علم، حتى لو

افترضنا أن الموضوع كان شائكًا ولم أفهمه، أو مجلسًا ما خرجت بمعلومات من خلاله، فهمت أم لم تفهم، عرفت أو لم تعرف، كان واضحًا لك أو ليس واضحًا، اجعل هدفك من الجلوس في مجالس العلم زيادة الإيمان، وهذه أحد الأهداف العظيمة وهي أن يزيد إيمانك، ثم إذا زاد العلم زاد الإيمان، من المؤكد أن المرة التي تتعلم فيها أكثر يزيد إيمانك، لكن مجالس العلم بنفسها وإحاطة الملائكة وذكر الله لأهلها فيمن عنده، هذا كله سبب لزيادة الإيمان.

إذًا هناك صفات للمعتصم:

أولًا: أنه خائف.

ثانيًا: أنه شديد التمسك.

ثالثًا: أنه مستغيث.

رابعًا: أن الإيمان هو الذي يشغله.

يعني لماذا لا يفعل كذا، ولا يذهب مع هؤلاء، ولا يقبل هذا الحكم، ولا يكون مرنًا، ولا يكون مستنيرًا؟! بسبب الإيمان؛ لأنه يعلم أنه لو سار خطوة واحدة وزلّت قدمه سيفقد الإيمان، ومن أجل أن يسترد الإيمان فهذا شأن عظيم، ربما قضى حياته من أجل أن يعود إلى الطريق المستقيم، وهذا هو بالضبط مطلبنا

كلما قرأنا الفاتحة، كلما قرأنا الفاتحة نطلب من رب العالمين أن يهدينا الصراط المستقيم، الصراط الذي يزيدنا إيمانًا حتى نصل سالمين، نسأل الله لنا ولذرياتنا والمسلمين جميعًا الهداية للصراط المستقيم!

نبدأ بقراءة الحديث الأول من المقدمة:

- حدثنا الْحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مِسْعَرٍ وَغَيْرِهِ، عَنْ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ لِعُمَرَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ أَنَّ عَلَيْنَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِينًا) لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي لَأَعْلَمُ أَيَّ يَوْمٍ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، نَزَلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ. سَمِعَ سُفْيَانُ مِنْ مِسْعَرٍ، وَمِسْعَرٌ قَيْسًا، وَقَيْسٌ طَارِقًا.

← الشرح:

(قال رَجُلٌ مِنَ اليَهودِ لعُمَرَ) الرجل من اليهود مُبهم، وهو كعب الأحبار، لكن قبل إسلامه، هذا الكلام يتضح أنه قبل إسلامه، في كتب المبهمات ظهرت إشارة إلى أنه كعب الأحبار، وكعب الأحبار أسلم وحسُن إسلامهم.

(يا أميرَ المُؤمِنينَ، لو أنَّ علينا نَزَلَت هذه الآيةُ): واضح أن هذا النقاش كان في عهد إمارة عمر -رضي الله عنه-،

البخاري اختصر الرواية وفي أبواب أخرى أشار إليها، يعني كعب في أثناء نقاشه لم يكن مسلمًا؛ فلذلك في الشرح سنقول: "اليهودي"، لكن أنت تعلم الآن من هو هذا المُبهم. فقول هذا اليهودي لعمر -رضي الله عنه- له مقصد، وهذا المقصد يظهر فيه ما يحمله اليهود على أهل الإسلام فقال له: (لو أنَّ علينا نَزَلَت) وفي الرواية الأخرى قال: «آيةٌ في كِتابِكُم تَقرَؤونَها، لو علينا مَعشَرَ اليَهودِ نَزَلَت لاتَّخَذنا ذلك اليومَ عيدًا.»[11] فسأله عمر -رضي الله عنه-: (أيُّ آيةٍ؟) فقال له هذه الآية: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)[12].

نستفيد أمورًا من هذا الحديث:

الأمر الأول: أن اليهوديّ يريد أن يغمز المسلمين ويتكلم بالخلفية الحاقدة، الخلفية الحاسدة التي لا ينفك عنها يهوديّ إلا إذا أسلم، هذا مغتاظ، "كيف تنزل هذه الآية عليكم أنتم؟!" ويشعر أن اليهود أحقّ بأن يُقال في دينهم أنه أُكمِل وأنه أُتمّ، وهذا مثلما قالوا في سورة البقرة عن طالوت: (وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ)[13] فهذا هو شعورهم الدائم أنهم أحق، وهذا الشعور باقٍ إلى قيام الساعة في مشاعر هؤلاء -عليهم من الله ما يستحقون-.

---

[11]() أخرجه البخاري (45).

[12]() المائدة: 3.

[13]() البقرة: 247.

الأمر الثاني: يريد أن يقول: "أنتم معشر المسلمين مهملون، لم تقدروا هذه الآية حق قدرها، ولو أنها نزلت علينا لفعلنا وفعلنا!" نوع من الاستفزاز أيضًا، وكأنه عرف محتواها وما تتضمنه، وأنتم ما عرفتم.

الأمر الثالث: نلاحظ هنا كيف يفكرون، كلما أعجبهم شيء جعلوه عيدًا كما هو مُلاحظ! في مقابل أننا معتصمون ملتزمون.

أنت الآن ترى كثرة الأعياد عند أهل الكفر، وترى المسلمين يستوردونها، ثم يقولون: "ما المشكلة؟ ايتوا بدليل على التحريم!" وندخل في نقاش لا نهائي، وهذا الأمر أشرنا إليه، والآن سنشير إلى أن عمر -رضي الله عنه- ردّ ردًّا مناسبًا، فأفحمه.

(فقال عُمَرُ: إنِّي لَأعلَمُ أيَّ يَومٍ نَزَلَت هذه الآيةُ، نَزَلَت يَومَ عَرَفَةَ في يَومِ جُمُعةٍ) وفي رواية أخرى: «فقد عَلِمتُ اليومَ الذي أُنزِلَت فيه، والسَّاعةَ»[14]

يعني ليس فقط اليوم، بل أعرف المكان والتفاصيل وأين نزلت بالضبط.

[14]() أخرجه مسلم: (3017).

قال: (إِنِّي لَأعلَمُ أيَّ يَومٍ نَزَلَت هذه الآيةُ، نَزَلَت يَومَ عَرَفَةَ في يَومِ جُمُعةٍ) سنرى التحليل ونرى كيف أن هذا فضل الله علينا، وهو أنه -سبحانه وتعالى- قد أخبر عن الإكمال والإتمام والرضا في ذاك اليوم العظيم والموسم العظيم، أعظم حجّة في التاريخ، كانت مع هذا النبي العظيم -صلّى الله عليه وسلّم-، مع هؤلاء الصحب الكرام، فنزلت هذه الآية العظيمة التي هي في غاية العظمة، التي -كما أشار اليهودي- فيها من دلالة العظمة ما جعلت اليهودي يقول: "لو نزلت علينا لاحتفلنا وجعلنا هذه المناسبة من المناسبات التي نحتفل بها"؛ لِعِظَم مضمونها. فعمر -رضي الله عنه- بيّن له أننا نعلم عِظَم مضمونها، لكن سنترك إجابة عمر الآن ونفكر في أنفسنا: هل هذه المعاني أثارت هذا الأمر في داخلنا؟ هل أثارت العظمة والإحساس بأنه دين عظيم؟ حتى أننا عندما نحلل الآية سيتبين لنا أن لها صيغة خاصة تنسب الفعل لله -سبحانه وتعالى-، فما هو شعور أهل الإسلام تجاه هذه الآية؟ شعور ضعيف! وضعف الشعور تجاه هذه الآية مؤشر خطر، يشير إلى عدم تقدير نعمة الشريعة، هذه الآية لا بد أن تصبح متداولةً على اللسان في كل موقف يشعر فيه الإنسان بمشاعر عظمة الدين، يجب أن تكون متداولة في كل

موقف يأتي فيه شخص ويقول: "أنا لا أجد إجابة على سؤالي!" يجب أن تكون متداولة في كل مرة أُربّي فيها أبنائي على أن هذا هو الدين ولا دين غيره، في كل مرة يأتي شخص ويقول لك: "ما الفرق بين الإسلام والنصرانية واليهودية؟" كل مرة هذه الآية يجب أن تعود إلى الأذهان وتكون على اللسان، ولاحظوا هذا السؤال من اليهوديّ، لاحظوا أن مثل هذه الأسئلة تدل على أنهم يفهمون ويعرفون هذا الدين أكثر مما يعرفه أهله! يعني اليهود يعرفون دين الإسلام -اليوم خاصة- أكثر مما يعرفه أهل الإسلام؛ ولذلك يعلمون أين يلقون الشُّبه، يعلمون مشاعر الناس، ومن ثمّ ما هو الشيء الذي يُثار في داخلهم من أجل أن يمتنعوا عن هذا الدين. ومثل هذه الآية المجملة كالدواء الشافي لجميع الأمراض، أنك تعلم أنه ما من شيء إلّا وموجود في القرآن، علمه من علمه وجهله من جهله، ما من شيء إلا وموجود في الدين، في الكتاب والسُّنة، عرفت أم لم تعرف!

وهذه نقطة البداية لتُهدى إلى الحق، نقطة البداية أن تعتقد وتشعر -وأنت تنظر إلى كتاب الله وتنظر إلى سُّنة النبي- أن فيهما الجواب الشافي، وتقول: "دُلنّي يا رب على الجواب!"، هذا مثل عندما تكون متأكدًا من أنك لم تخرج جوهرتك الثمينة

من هذه الغرفة، لكن في الغرفة أماكن كثيرة تحتاج إلى تفتيش، فأنت ماذا ستقول؟ ستقول: "أنا متأكد من أن جوهرتي الثمينة هنا، يا رب دلّني على مكانها!" وأعظم من جوهرتك المادية، الثقة في أن كل شيء تحتاجه إنما هو موجود في الكتابة والسُّنة، والعلم رزق ويحتاج إلى استغاثة؛ ولذلك مما يذكر في أذكار الصباح أن نسأل الله علمًا نافعًا، فالعلم رزق، لكن لا بد أن يسانده صدق في طلبه، وصدق في السعي، قل: "أدخلني مُدخل صدق!" والصدق بمعنى القوة، أن تكون قويًّا في ذلك.

اختار الله لنزول هذه الآية على النبي -صلّى الله عليه وسلّم- وعلينا نحن المسلمون -فضلًا منه وإحسانًا- يوم عرفة الذي هو أعظم أيام العام، في أعظم حجّة، ووافقت يوم الجمعة، فجمعت بين الخير كله، هذا عيد المسلمين، واتفق شرف الجمعة بشرف عرفة، وبشرف المكان، وبشرف المُنَّزل عليه -صلّى الله عليه وسلّم-. أعياد بعضها فوق بعض، فكأن عمر -رضي الله عنه- يقول لليهوديّ: "اقتراحك بأن نتخذه عيدًا، لا يلزمنا ولا محل له!"، وقد أشرنا إلى أن اليهود كلّما ناسبهم شيء جعلوه عيدًا.

نرى الآن كيف أن عمر ردّ على بقية غمز هذا اليهوديّ، فأراد عمر أن يرد عليه بأن هذا اليوم معروفٌ والزمان معلوم،

فسدّ عليه الباب الأول من غمزِه، كأن اليهوديّ يقول لعمر: "أنتم ما قدرتم هذه الآية حق قدرها، ولا علمتم أين نزلت" فقال له عمر: "نعلم أين نزلت" وقال اليهوديّ: "لو نزلت علينا لاتخذنا هذا اليوم عيدًا" فردّ عليه عمر: "إن الله كفانا واختار لنا هذا اليوم العظيم، ولن نحتفل بأمر لم يأمرنا الله بالاحتفال به"، فيوم عرفة للمسلمين الغير حُجَّاج هو بداية العيد، أما للحجاج فاليوم التالي هو يوم عيد، ويوم الجمعة في كل العام هو يوم عيد للمسلمين؛ ولذلك لا بد أن يكون يوم الجمعة يومًا مميزًا، بحيث يُصبغ بصِبغة العيد الإسلامي الذي يكون تابعًا دائمًا للشعائر. لدينا ثلاثة أعياد كلها مرتبطة بالشريعة وبالعبادة: الجمعة مرتبطة بهذا اليوم العظيم الذي في أوله فضل صلاة الجمعة، وقراءة سورة الكهف، وفيه وقت إجابة الدعاء، فيجب أن يكون يومًا مميزًا على جميع الأصعدة.

ثم عيد المسلمين في شوال يأتي بعد الصيام، وعيد المسلمين في الحج يأتي بعد الحج، سواء كنت حاجًّا أو لست حاجًّا، أنت تشاركهم بصيام يوم عرفة وبذبح الأضحية. فهذا كله إشارة إلى أن العيد مرتبط عندنا بالعبادات، فليس لأحد بعد ذلك أن يقول: "لماذا هذا العيد ممنوع؟" هذا الكلام أشرنا إليه، هل تريد نصًّا

يقول لك: "لا تتخذ هذا اليوم عيدًا!" لن يحصل هذا، النبي -صلّى الله عليه وسلّم- حصر هذا ووصف العيدين.

نأتي الآن إلى جُمَل هذه الآية العظيمة:

أولًا نرى ملاحظة مهمة، وهي أن الله -عزّ وجلّ- عندما تحدث في هذه الآية عن أفعاله لم يُشِر إلى نون العظمة، وهو -سبحانه وتعالى- يشير في كثير من المواطن إلى نون العظمة، وهذا موافق للغة العرب، قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[15] هذه نون العظمة، فهنا لم يُشَر إليها في هذه الآية، وإنّما قال -عزّ وجلّ-: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)[16] فتفهم من هذا أن رب العالمين يريد منّا مرادًا، وهو تصور نسبة هذه الأفعال مباشرة إليه، أنت الآن عندما تنظر للدين وإلى إكماله وإتمامه ورضا الله به، لا بد أن تترك النظر إلى الخلق وتفكر مباشرة في رب العالمين، أن هذا الدين الله أكمله وليس الخلق، وهذا الدين الله أتمّه وليس الخلق، وهذا الدين الله رضيه، فكيف لا أرضى بما رضي به الله؟ فإذا كان الإكمال والإتمام والرضا من

---

[15]() الحجر: 9.

[16]() المائدة: 3.

الله؛ وجب على أهل الإيمان التعبير عن يقينهم بالاعتصام؛ لأن الله هو الذي أكمل وأتمّ ورضي.

فمن هنا تفهم لماذا أشار البخاري لهذه الآية، ولماذا نقل هذه الآية في كتاب الاعتصام -لأن هذا ليس الباب الأول، هذه مقدمة الكتاب-؟ أورد هذه الآية ليقول لك: "اعتصم بهذا الكتاب، وهذه السُّنة، وهذا الدين؛ لأن الله هو الذي أكمله، وهو الذي أتمّه، وهو الذي رضيه." فأنت من ثمّ إذا شعرت أنه يوجد أمر تحتاجه وغير موجود في الدين بيانه، حينئذ لا تكون وجّهت الاتهام إلى الخلق أو إلى العلماء، إنما هذا سوء ظن بالله؛ لأن كل ما يحتاجه الناس في أي زمان موجودة في هذا الكتاب؛ لأن الله أكمل وأتم ورضي، لكن يعرفها من يعرفها ويجهلها من يجهلها؛ ولذا لا بد أن تعلم أن الشيطان وأعوانه حريصون على أمرين:

الأمر الأول: على تقليل قيمة العلماء الراسخين وتشتيت جهودهم.

الأمر الثاني: على إلقاء الشُّبه على الناس.

إذًا بداية تفقد الثقة في العلماء، ثم يلقون عليك الشُّبه. عندما يلقون عليك الشبهة تذهب لمَن وتسأل مَن؟! إذا فقدت الثقة في

الطبيب المعالج فماذا تفعل؟! وأيضًا يعملون على تشتيت العلماء، حتى أن العلماء لا يكون عندهم جمع ذهن من كثرة الإشكالات التي تُلقى عليهم، وقلة المساند لهم، وقلة طلبة العلم الذين يبذلون جهدهم أن يُسهّلوا ويقربوا ويفهموا المسائل؛ لأن شخصًا واحدًا أو شخصين أو حتى لجنة من عشرة أشخاص ماذا تفعل لأمة الإسلام؟!

فمن جهة: هناك تقليل من قيمة العلماء وتشتيت لجهودهم لإفقاد الثقة بهم. ومن جهة أخرى: إلقاء الشُّبه. وهاتان مسألتان متتاليتان!

تكون النتيجة حين لا تجد جواب سؤال في القرآن والسنة؛ أن تسيء الظن في رب العالمين! والحقيقة لا يوجد سؤال يخصّ نفسك أو دينك أو أسرتك أو مجتمعك، يمكن أن يخرج عن إكمال الله للدين وإتمامه ورضاه سبحانه وتعالى.

(سَمِعَ سُفْيَانُ مِنْ مِسْعَر وَمِسْعَرٌ قَيْسًا، وَقَيْسٌ طَارِقًا): هذا على طريقة البخاري في كونه يشترط السماع، يعني العنْعَنَة التي في السند بيّن أنها سماع.

ننتقل للحديث الثاني:

• حدثنا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ، الْغَدَ حِينَ بَايَعَ الْمُسْلِمُونَ أَبَا بَكْرٍ، وَاسْتَوَى عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- تَشَهَّدَ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَاخْتَارَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- الَّذِي عِنْدَهُ عَلَى الَّذِي عِنْدَكُمْ، وَهَذَا الْكِتَابُ الَّذِي هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَكُمْ، فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا، وَإِنَّمَا هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ.

← الشرح:

هذا الحديث جزء من حديث طويل، وهذا الموقف الذي فيه هذا الحديث كان بعدما اجتمع بعض الأصحاب في السّقيفة واتفقوا على بيْعة أبي بكر -رضي الله عنه- بعد موت النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، في اليوم التالي في الغد، صعد الصدّيق على المنبر ليستقبل بيعة عامة الناس، في هذا اليوم الذي جلس فيه الصديّق على المنبر، عمر -رضي الله عنه- خطب في الناس، يعني صعد أبو بكر -رضي الله عنه-، وعمر في أسفل المنبر خطب الناس بخطبة طويلة، البخاري أتى بجزء منها شاهدًا لهذا الباب، سنقرأ الرواية جملة جملة ونشير سريعًا لمناسبة هذه الرواية للباب، وهذا طريقة في دراسة الصحيح: أن

تهتم باسم الباب، هنا طبعًا نحن لازلنا في المقدمة، يعني كأنّ البخاري -كما يذكر أهل العلم- فقهه في أسماء أبوابه، فأنت تجد أن البخاري يأتي بأجزاء من الأحاديث، يأتي بشواهد من الآيات، عندما تجدها لا تدخل في تفاصيلها، بل أول سؤال تفكر فيه: "هذا المعنى ما علاقته بالباب؟ لماذا ورد في هذا الكتاب؟" أحيانًا تكون لا تفهم نفس النص، فحينئذ ابحث عن معناه وافهمه. لكن في النهاية بعد فهمك للنص ستجده يؤيد هذه الفكرة أو هذا المعنى؛ لأن هذا المعنى الذي خرج به في اسم الباب أو اسم الكتاب هو كأنه -بتعبيرنا- الزُّبد التي يراد منك أن تفهمها.

(أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ الْغَدَ حِينَ بَايَعَ الْمُسْلِمُونَ أَبَا بَكْرٍ): الغد من البيعة الأولى.

(وَاسْتَوَى عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم-): الذي استوى هو أبو بكر، في اليوم الثاني للبيعة صعد أبو بكر المنبر وجلس عليه ليستقبل بيعة الناس الذين لم يبايعوا في الثّقيفة، الآن سيخطب عمر من أسفل المنبر من أجل أن يبين للمسلمين أمرًا مهمًا.

(تَشَهَّدَ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ): بدأ خطبته بالشهادة، وهذا أمر معلوم أنهم كانوا يبدؤون كلامهم بحمد الله والصلاة والسلام على

رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-، وهذا المفترض أن يكون منهجك حينما تريد أن تقول كلامًا مهمًا.

(فَقَالَ -عمر-: أَمَّا بَعْدُ): هذا اختصار، أي سبقه حمد وصلاة على الرسول.

(فَاخْتَارَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ -صلَّى الله عليه وسلّم- الَّذِي عِنْدَهُ عَلَى الَّذِي عِنْدَكُمْ): هذا جزء من الخطبة[17]، اختصرها البخاري هنا ليبين لنا مسألة الاعتصام، وهذا ما نعتقده كلنا أن ما عند الله خيرٌ لرسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- مما عندنا، بل هو خيرٌ لكل مؤمن صالح، وإنَّ أعظمَ ما يتعزَّى به الإنسانُ عند فَقْدِ محبوبه بالموت؛ هو الدعاءُ له بالرحمة، واليقينُ بأنَّ مجاورته لله خيرٌ من مجاورته لأهل الدنيا، وقد أحسن الشاعر في ذلك لمّا عزّى نفسه في ولده الذي توفي فقال:

جَاوَرْتُ أَعْدَائِي وَجَاوَرَ رَبَّهُ... شَتَّانَ بَيْنَ جِوَارِهِ وَجِواري!

فهذا أعظم ما يعزّى به الإنسان، وهذا الذي قد قاله عمر -رضي الله عنه-؛ وهذا ما تعتقده العقيدة السوية السليمة؛ لأن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- مرّ على جنازة فقال: «مستريحٌ ومستراحٌ منْهُ فقالوا ما المستريحُ وما المستراحُ منْهُ؟ قالَ: العبدُ المؤمنُ يستريحُ من نصَبِ الدُّنيا وأذاها والعبدُ الفاجرُ يستريحُ

---

[17]() من يريد أن يقرأ الخطبة كاملة فهي في باب البيعة في كتاب الأحكام في صحيح البخاري.

مِنْهُ العبادُ والبلادُ والشَّجرُ والدَّوابُّ»[18]، فكل مفقود وإن كان يعزّ علينا فقده لكن عندما نعلم عنه الصلاح والأعمال الطيبة، نرجو أن يكون الموت راحة له، فحينما نقول عن ميت إنه ارتاح فهذه كلمة شرعية، خصوصًا لمن عُرِف صلاحه، نسأل الله أن يجعلنا ممن يستريح!

(وَهَذَا الْكِتَابُ الَّذِي هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَكُمْ، فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا، وَإِنَّمَا هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ): هذا هو الشاهد المتصل بالاعتصام، عمر يريد أن يقول: "إن اهتداءنا بل اهتداء النبي -صلّى الله عليه وسلّم- إنما كان بهذا الكتاب." ومناسبته لولاية أبي بكر -رضي الله عنه- مناسبة واضحة، كأنه يقول لهم: "ليس المعوّل على الشخص في الهداية إنما المعول على الكتاب، لكن هناك من يُحسن النزّع من الكتاب وهناك من هو كسلان، لديه القوة لكنه لا يستغل قوته وهناك من لا يستطيع، فيُنزع عنه." فنحن نعتبر الكتاب والسنة كأنهم بئر الماء العذب العظيم، الذي لا تقوم الأرواح إلا به، كما لا تقوم الأبدان إلا بالماء ولذلك ضُرب هذا المثل: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا)[19] ، فالماء مضروب مثال على الوحي، فعندما نأتي نريد أن نشرب

---

[18]() أخرجه النسائي (1930).

[19]() الرعد: 17.

من هذا الماء، نأخذ من هذا الوحي لحياة قلوبنا، هناك من يُحسن النزع، يُلِقي دلْوَه ويُخرج الماء ويشرب، وهناك من هو كسلان، وهذه أزمة كبيرة؛ لأنه سيموت عطشًا، فالكسل مُعيق له، وهذه حقيقة كثير من النابغين الذين لديهم قدرة أن يتعلموا ويفهموا، نحن لا نريد أن يتعالم الشخص، أن يذهب لينزع الماء مع فقدانه أدوات النزع، المشكلة هذا عندما يذهب للنزع يغرق، يسقط، ويُغرق معه غيره، تجده يفتي بغير علم، فهذا التعالم المنهي عنه شرعًا، وللمهتمين بموضوع التعالم هناك كتاب لعضو هيئة كبار العلماء الشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله- اسمه التعالم، كتاب لغته عالية لكن مهم جدًا في هذا الزمان أن يُقرَأ مع الناس المتسرعين، الذين لا يستطيع أحدهم أن ينزع وينزع، فيغرق ويغرق الناس!

إذًا مشكلة الصنف الأول: أنه ثقة وعنده قوة ويُشوّش عليه.

مشكلة الصنف الثاني: أنه كسلان ويزيدونه التهاء وكسلًا.

مشكلة الصنف الثالث: لا يملك أدوات النزع ويدفعه الشيطان وحزبه.

(فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا، وَإِنَّمَا هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ): يريد أن يقول لهم: "النبي -صلّى الله عليه وسلّم- لمن كان موجودًا كنا نذهب

فنستفتيه، فينزل عليه الوحي، فنهتدي بهدي الوحي" وقد يقال للرجل الذي يستفتي النبي -صلّى الله عليه وسلّم- أو يطلب منه رأيًا أو وصفًا لحاله أو حلًا لمشكلته: "اصبر يومًا، أو يومين" وأحيانًا يصبر الشهر كما في حادثة الإفك، وأحيانًا يصبر الأربعين يومًا كما في حادثة كعب -رضي الله عنه-، فالله أعلم متى ينزل، لكن في النهاية كلهم كانوا ينتظرون من السماء، لما انقطع خبر السماء -ونحن عقيدتنا أن الله أكمل الدين وأتمّه ورضيه- معنى ذلك أن كل ما نحتاجه موجود في كلام الله -سبحانه وتعالى- وفي كلام رسوله -صلّى الله عليه وسلّم-.

إذًا بماذا نعتصم حتى لا نضلّ؟ بما كان عليه النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، وبما اعتصم به الأصحاب الكرام. هذا المقصد، فالأشخاص يُقدّر حالهم بمقدار اعتصامهم، فعمر -رضي الله عنه- يريد أن يبين أنه لا أنا ولا أبو بكر، ليست القضية في أشخاص وإنما الهدى إنما هو بكتاب الله -عزَّ وجلَّ-، الحجة ليست بالأشخاص الحجة هو الكتاب، ولذلك قال تعالى: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا

الْإِيمَانُ)[20] المقصود أن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- قبل الوحي لم يكن شيئًا إلا لما نزل عليه الوحي فتمت المسألة.

هناك أمر آخر يتمم الكلام الذي ذكرناه في البداية: وهو أن في أي زمان وفي أي مكان، كل شيء تحتاجه ستجد إجابته، أريد منكم أن تفتحوا مصاحفكم على قوله تعالى: (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)[21] هذه الآية قال عنها أهل العلم ومنهم ابن تيمية ومنهم الشاطبي وغيرهم: "إن هذه الآية دليل على أنه لا يحدث في الزمان المستقبلي حدثًا إلا وفي القرآن أحسن منه تفسيرًا وبيانًا" يعني (وَلَا يَأْتُونَكَ) في زمن من الأزمان (بِمَثَلٍ) يعني بحكم أو بوصف أو بحال أو بمشكلة أو بوضع (إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) إلا جئناك بالحق فيها بل وأحسن تفسيرًا وبيانًا، وهذا باقٍ إلى قيام الساعة. من أين علمنا أنه باقٍ إلى قيام الساعة؟ من قوله تعالى: (وَلَا يَأْتُونَكَ) يعني مهما أتوك (بِمَثَلٍ) بمثل هذا،(إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) سيأتي كتاب الله بالحق. من الذي سينتزع هذا الحق من القرآن؟ العلماء. لكن في القرآن كل الحق، إلى قيام الساعة ما يطرأ على الناس أمر إلا وفي القرآن والسنة حُكمه. هذه الثقة

---

[20]() الشورى: 52.

[21]() الفرقان: 33.

هي مبدأ وجود الجواب، أي أنه ليس لأحد أن يقول: "سأجرب إذا كان هناك جواب لكل سؤال أو لا!" غير صحيح! بدايةً عليك أن تثق ثم الله ينوّر بصيرتك لأنه قد يأتيك العلماء بالحق، ويبينونه لك، لكن إن لم تكن تملك البصيرة، فلن تراه.

لا بد أن نعلم أن نور الله الذي يلقيه في قلوب أهل العلم الصادقين الراسخين الراغبين برضا رب العالمين، هذا النور تنتفع منه الأمة؛ ولذا من حق أهل العلم علينا أن ندعو لهم، ندعو أن الله -عزّ وجلّ- يثبتهم ويقويهم وينّور بصائرهم، عندما تُقبل على هذا المفتي الذي تعلم رسوخه في العلم، أقبل عليه وأنت تدعو الله -عزّ وجلّ- أن ينوّر بصيرته، هذه حقوق!

المقصد الآن أنه حتى لو لم تنزل نازلة علينا -والحمد لله أوضاعنا مستقرة ولا توجد نوازل-، هذه عقيدة نقولها في قلوبنا ونلقى الله بها ونرجو أن يثقّل الله بها الميزان، حتى إن كنت بعيدًا عن النوازل وعن المواقف والأحداث، فهذه عقيدة، هذا قول القلب، أعتقده، أرجو أن ألقى الله به، أنتظر أن يثقّل ميزاني؛ لأنه (إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ)[22]، حُصِّل ما في الصدور، ماذا تعتقد بربك؟ ثم ماذا تعمل؟ أنت مأمور في سورة

---

[22]() العاديات: 9.

الإخلاص: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، هذا لا يعني أن تقول بلسانك فقط، وإنما المقصود قول القلب الذي هو اعتقادك ويتْبعه عمل القلب من الاكتفاء به، الفزع إليه، إلى آخر معاني اعتقاد الأحدية والصمدية، لكن الشاهد أن (قُلْ) تعني: "قل بقلبك" حتى يفعل قلبك ثم ينطق لسانك، وهذا سبب الحثّ على تكرار قراءتها؛ كأنها تذكير للفؤاد بهذه العقيدة.

فاعتقاداتنا أمر عظيم، وفي كتاب الاعتصام سنعتقد أمرًا عظيمًا، وبالمناسبة هذا الكتاب هو الكتاب قبل الأخير عند البخاري، ختم بالتوحيد، هو جاء في آخر الكتاب وأشار إلى الأمور العظام، بدأ بكتاب: بدء الوحي والباب قبل الأخير كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة ثم ختم بكتاب: التوحيد؛ إشارة إلى أن هذه الأمور عِظام عليك أن تأخذ بها، عقيدة يجب أن تتبناها، أن في كتاب الله -عزّ وجلّ- وفي سنة النبي -صلّى الله عليه وسلّم- الكفاية، وإن كنت لا تستطيع أن تنتزع منه، فاسأل الله أن يسخر للأمة من ينزع منها في كل شأن، وأن يرفع عنّا هذا الجهل والكسل أيضًا، نعوذ بالله من الجهل، نعوذ بالله من الكسل! وأنتم تعلمون أن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- قد استعاذ بالله من العجز والكسل، وهي أحوال واضحة، أعمار مهدورة، أوقات

متوفرة، حياة كريمة يستطيع الإنسان فيها أن يستغل قواه وذكاؤه في أن يتعلم ويبيّن ويعمل، لكن الله المستعان!

ننتقل للحديث الثالث:

• حدثنا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ، عَنْ خَالِدٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ضَمَّنِي إِلَيْهِ النَّبِيُّ -صلَّى الله عليه وسلّم- وَقَالَ: "اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ".

← الشرح:

هذا الحديث اختصره البخاري لأن المقصود منه هذا المقطع.

تمام القصة أن ابن عباس -رضي الله عنه- رأى النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- ذهب ليقضي حاجته، وكان ابن عباس حينئذ شابًا غلامًا في مُقتبل العمر -لا زال صغيرًا-، لكن لذكائه وألمعيته وفطنته عرف أنه ذهب ليقضي حاجته، إذًا سيحتاج الماء، فذهب وجهّز له ماءً للاغتسال والوضوء وقدّم له الماء، فالنبي -صلّى الله عليه وسلّم- لاحظ هذا الذكاء وقدّر هذا الذكاء أو الألمعية، وهذه الأمور فيها استعداد فطري، يكون صاحبها عنده القوة أكثر من غيره، ثم أن هذا الذكاء والألمعية لا بد أن يُستفاد من صاحبها غاية الاستفادة، فما غاية الاستفادة، من أي

إنسان ذكي، يا أمة الإسلام؟! غاية الاستفادة من أي إنسان ذكي العلم، والعلم الذي يحق له أن يُسمى علمًا، هذا العلم الذي نزل من السماء، بعد ذلك كل ما يتمكن منه الناس فهو فنون يستطيعونها، واليوم هذه الفنون الآلة ستغلبنا عليها! من المؤكد تلحظون ذلك ولا نحتاج شاهدًا، يعني منذ زمن ونحن لا نحتاج لجدول الضرب بسبب الآلة الحاسبة، يستطيع الجميع الحساب بكل سهولة. فالآن من الآلة الحاسبة التي يمكنها أن تحل محل الإنسان إلى ما يسمونه "بالذكاء الاصطناعي" الذي سيحل محل الطبيب! وها هو مثلًا مركز الملك فيصل في الرياض الذي هو أكبر مركز في الشرق الأوسط لعمليات القلب المفتوح ها هو يستخدم الذكاء الاصطناعي، ها هو يستخدم الروبوتات! يعني الطبيب من خلف هذا الروبوت والروبوت هو الذي يقوم بأكثر العمليات! هذا يعني أنه سيذهب هذا الدور الذي يقوم به الأذكياء، ويبقى هذا العلم الشريف الذي ما يصلح فيه إلا نفس إنسانية، يبقى هذا العلم الذي يجب أن يكون للأذكياء الفطينين وليس مثل ما هو حاصل في العالم الإسلامي، أن الذي لا يجد كلية مناسبة لأن مجموعه قليل، هو من يتوجه للكليات الشرعية! شيء مؤسف!

هذه الطريقة ينقضها علينا موقف النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، النبي -صلّى الله عليه وسلّم- لما رأى ألـمعية ابن عباس قال : (اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ) معنى ذلك أننا نحتاج إلى هذه العناصر، أن أشعر أن هذا فيه ألـمعية، وأن أدعو الله له، وأن أُهيّئ له الأسباب التي يصل بها إلى العلم، الدعاء هذا : (اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ) في ضمنه: "اللهم اشرح صدره للعلم، اللهم حبب إليه العلم!) ولذا الله -عزّ وجلّ- قد أخبر عن هؤلاء الأصحاب الكرام أنه حبّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم، ومن ذلك أن الله حبّب العلم لابن عباس، وقد ذُكر في وصفه وتاريخه وتصرفاته ووقوفه على أبواب الصحابة وسؤاله وجهده ما وُصف! حتى أنه يحكي عن صاحب له أنهم لما كانوا صغارًا بعد وفاة النبي -صلّى الله عليه وسلّم- قال له ابن عباس: "هلُمّ بنا نسأل أصحاب النبي -صلّى الله عليه وسلّم-" فقال له صاحبه: "وهل تظن أنه يُحتاج إليك؟!" يعني مع توفر الأصحاب الكرام أنت مَن سيحتاج إليك؟! فترك هو طلب العلم، وابن عباس أكمل المشوار، فكان ابن عباس حَبر هذه الأمة!

فألـمعيته ودعاء النبي -صلّى الله عليه وسلّم- وتوفر الوضع الذي يسمح بذلك؛ خرّج مثل ابن عباس، وهذا كأنه منهجٌ إلى

قيام الساعة، عندما ترى شخصًا ذكيًا، قل له: "أنت ما لك إلا العلم." وإذا لم ينشرح صدره! فادعُ له ربنا أن يشرح صدره، ادعُ له، قُم الليل سائلًا الله أن يشرح صدره ويفتح له الأبواب وتتهيأ له الأمور.

فأنت يجب أن يكون في داخلك شعور أن هذا العلم للأذكياء، هذا للفطينين، هذا العلم ما يكون إلا لهؤلاء أذكياء النفس وأذكياء العقل، تكون نفوسهم ذاكية وعقولهم فهيمة.

الشاهد من هذا: لماذا أتى في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة أن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- دعا له هذا الدعاء؟

- إشارة إلى أنه بالانشغال بالكتاب يحصل الانتفاع من العقل.
- وأن تعلم العلم وفهمه إنما هو فضل من رب العالمين، فضل يتفضل به رب العالمين.

توجد رواية متداولة على اللسان: "اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل" هذه وردت في بعض الكتب وليست في الصحيحين، أما روايتنا: "اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ"، هذه في الكتب الستة، أما (علّمه التأويل) ليست خطأ لكن الرواية التي في الصحيحين والتي في الكتب الستة: "اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ"،

إشارة إلى أن الكتاب يستحق التعليم بل يستحق أن تدعو لتتعلم، فما من أحد سيعتصم بالكتاب والسنة إلا إذا كان هناك علم، ثم هناك إشارة لطيفة جدًا من وضع البخاري لهذا الحديث هنا، الحديث السابق كان فيه أبو بكر وعمر -رضوان الله عليهم-، وهم ينزعون من ميراث النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، ماذا نفعل في الجيل القادم؟ أورد هذا الحديث، فالمفترض أن يكون هذا بمثابة الميراث الذي يُورّث؛ ولذلك في الباب الثاني قال: بَابُ الاِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم- -.وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) قَالَ: "أَئِمَّةً نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا"

كيف يكون ذلك؟ هذان أبو بكر وعمر، وهذا ابن عباس يتعلم الكتاب، فيقتدي بمن قبله، ثم يُعلم مَن بعده فيقتدي به مَن بعده، وهكذا تبقى السلسلة متصلة في ديار الإسلام، هنا لا بد أن أُعيد عليكم الإشارة إلى العلم الذي كان في الهند والعلم الذي في الجزيرة، ونقول: "سيبقى الإسلام ما بقيت الدنيا إلى قرب قيام الساعة، لكن ليس شرطًا أن نكون حامليه، إن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ولا يكونوا أمثالكم"، الدين منصور

بنا أو بغيرنا، الشرف أن نكون نحن وذرياتنا من نصر هذا الدين وحمل هذا الشرف.

الشاهد: بعلم القرآن يسمو الإنسان ويشرُف، وتكون له الكرامة في الدنيا والآخرة.

ننتقل للحديث الرابع:

•حدثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَبَّاحٍ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ، قَالَ: سَمِعْتُ عَوْفًا، أَنَّ أَبَا الْمِنْهَالِ حَدَّثَهُ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا بَرْزَةَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يُغْنِيكُمْ -أَوْ نَعَشَكُمْ- بِالْإِسْلَامِ، وَبِمُحَمَّدٍ -صلَّى الله عليه وسلّم- .

← الشرح:

هذا الحديث أيضًا مقطع من حديث طويل موجود في كتاب الفتن، كلام أبو برزة -رضي الله عنه- كان بسبب الفتنة أيام ابن الزبير والحرب بين عبد الله بن الزبير -رضي الله عنه- وعبد الملك بن مروان وغيرهم، كانت فيها فتن كثيرة وحروب وإراقة دماء وكان أبو برزة -رضي الله عنه- من الصحابة الذين أدّاهم اجتهادهم إلى أن يعتزلوا الفتنة ولا يقاتلون، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

لما دخل عليه أبو منهال سمعه يحدث حديثًا طويلًا يستنكر فيه هذا القتال، إلى أن وصل إلى تذكيرهم: "ماذا كنتم أيها العرب؟!" كأنه يقول لهم: "كنتم جوعى في الصحراء، ويقتل بعضكم بعضًا على أمور تافهة، وكنتم في حالٍ من الذلّة والقلّة ما الله بها عليم، ثم أن الله نعَشَكم بالإسلام وبمحمد -صلّى الله عليه وسلّم-".

(نَعَشَكُمْ بِالْإِسْلَامِ) هنا موضع الشاهد، أي: تصور كأنهم كانوا موتى وأتاهم إنعاش -بنفس المعنى الذي نستخدمه-، وهذا حقٌ كما في آية الأنعام، قال تعالى: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)[23] فكأنه يقول: "ماذا كنتم أيها العرب بدون الإسلام وبدون محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم-؟!"

فالفضل لله وحده بأن أنعشنا بهذا الدين، وكل خير يجده الإنسان في الدنيا لأهل الإسلام إنما جاءهم من الإسلام، ونحن نتكلم عن التاريخ المعاصر -الذي يحتاج إلى قراءة جيدة-، الآن قبل أن تأتي دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-، في نَجْد ثم تنتشر على أجزاء الجزيرة، لا نحتاج أن نتكلم عن تاريخ

---

[23]() الأنعام: 122.

الفقر الذي كانوا فيه بسبب الشرك، الشرك الصريح، المرأة لما كانت تريد أن تحمل، كانت تذهب إلى شجرة معينة وتقول: "يا فحل الفحول أعطني ولدًا قبل الحَول!" تنادي الشجر وتنادي الحجر! بل وتطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله! ثم أراد الله خيرًا بهذه الأرض والبلاد وجاءت دعوة التوحيد، ومر زمن بعد ذلك وحصلت حالة من الأمن، إلى أن استقر التوحيد على أرض الجزيرة -اقرأ في التاريخ وسيتبين لك-، وما إن استوى التوحيد على أرض الجزيرة كاملة تقريبًا إلا وفجّر الله لهذه البلاد قاطبة هذا الخير -البترول-، وأنت لاحظ كيف أحوج الله الناس في هذا التوقيت لهذا البترول! هذا فضل عظيم من رب العالمين! إشارة إلى أنه -سبحانه وتعالى- جعل الأرض مليئة بالثروات، لكنه لا يُخرجها لأهل الإسلام خاصة إلا عندما يحققون المطلوب منهم، لا تقل لي: "لكن الشرق والغرب أهل كفر، والله يعطيهم!" انتبه! معاملة الله لأهل الإسلام مختلفة عن معاملته لكل الناس.

ما هي الطريقة؟ أنتم أهل الشرف بالقرآن، فإذا أخذتم بالقرآن رفع الله شأنكم في الدنيا وفي الآخرة، وإذا أعرضتم عنه فلن تنالوا دنيا ولا آخرة ومهما ركضتم فلن تلحقوا أحدًا، ما لم يكن القرآن قائدكم. لماذا؟ هذا حكم خاص بالمسلمين؛ لأنكم أخذتم شرف

حمل الكتاب، فبالكتاب سيكون شرفكم وهذه سنة الله، لو أن كلّ من أذنب خسف الله به، لما أقدم أحدٌ على الذنوب! لكن لله سنة؛ يُمهل الخلق. ولتتأكد من هذا الكلام انظر حولك في بلاد الإسلام لأصحاب الأنهار، المفترض أي أرض فيها نهر -خصوصًا لو كانت أنهارًا كبيرة- تكون أرضًا لا تعرف الفقر؛ لأن الماء أول أداة للزراعة والاكتفاء وغيره، الآن انظر للفرق بين أرض صحراء ثم أصبحت تفيض بالأموال، وأراضٍ مليئة بالأنهار والفقر عنوانها! فأنت ستقارن -أتكلم عن ديار الإسلام، اترك عنك ديار الكفر- بين حال التوحيد والعناية به، الإيمان، القرآن. فالفقر قرين الشرك والغنى قرين التوحيد، ليس فجأة بل بأحوال يضعها ربنا، كلما مال الناس بعيدًا عن التوحيد لا بد أن تأتي الأزمات الاقتصادية، التراجع...وكلها سنن، والناس يُرجعون الأزمة الاقتصادية للأسباب الدنيوية، متغافلين أن وراءها ما وراءها! وهذه الجملة تؤكد لك: (إِنَّ اللَّهَ يُغْنِيكُمْ) هذه الرواية الأولى وهناك تعليق عليها عند البخاري (أَوْ نَعَشَكُمْ - بِالْإِسْلَامِ، وَبِمُحَمَّدٍ -صلَّى الله عليه وسلّم-) أنتم كنتم ميتين، فقراء، ضعفاء، ذليلين، يقتل بعضكم بعضًا، وهذا بالضبط كان حال الجزيرة قبل أن يأتيها التوحيد، فقر، مجاعة، يقتل بعضهم بعضًا على أقل شيء! والتاريخ ملئ

بالأحداث، ثم أزاله الله إزالة تامة وها نحن نسافر للعمرة -دعونا نقول: "أهل هذه الدولة المباركة"- في ساعتين، نرجع في ساعتين، أيسر ما يكون، لا قطاع طريق، ولا مخاوف، ولا نحتاج أن نحمل معنا طعامنا ولا غيره، فالخير في كل مكان ما دام التوحيد موجودًا ومحافَظ عليه، وإذا نزل مؤشر الاهتمام بالتوحيد، حصلت الأزمات الاقتصادية؛ ولذلك من المفاهيم الغائبة في التعامل البركة، هي التي تجعل الشيء القليل كثيرًا، و تجعل العمر القصير طويلًا في الحسنات، والتي تجعل المشاكل والأزمات التي في داخل الأسر قصيرة المدى وبسيطة الأثر! البركة، هذا المفهوم الذي يغيب مع المادية.

(نَعَشَكُمْ - بِالْإِسْلَامِ، وَبِمُحَمَّدٍ -صلَّى الله عليه وسلّم-) إذا انسحب الإسلام ومحمد -صلّى الله عليه وسلّم- من خارطتكم، ستعودون فتموتون موتة أحياء في الدنيا! قال تعالى: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) أنت معك نورٌ تمشي به في الناس، كلما ابتعدت عن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- وعن الإسلام، كلما سُحب منك النور، لا بد أن تستيقظ من هذه الغفلة الخطيرة التي تعيشها، وانظر للناس حولك الذين كانت -سابقًا- كسوة

الكعبة تأتي من ديارهم! وستعلم أثر التوحيد والشرك. ليس شرطًا أن تقرأ في التاريخ، اقرأ الواقع الذي يعيشه الناس وستعرف، ولا تنسب الأشياء إلى الماديات واعلم أن معاملة الله لأهل الإسلام معاملة مختلفة؛ لأن هؤلاء أهل الإسلام فضّلهم الله ونعشهم بحمل الكتاب، فمن المؤكد معاملتهم وارتفاعهم وشأنهم سيكون سببه مختلف عن ارتفاع وشأن غيرهم.

المقصد: أن أن الاعتصام بالكتاب والسنة سببٌ لحياة الناس، ولإنعاشهم، ولإعادة الحياة لهم، فكأنه سبب حياتنا.

ننتقل للحديث الخامس:

• حدثنا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يُبَايِعُهُ، وَأُقِرُّ بِذَلِكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فِيمَا اسْتَطَعْتُ.

← الشرح:

هذا الحديث أيضًا مقطع من حديث طويل، وهنا عبد الله بن عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- كتب إلى عبد الملك بن مروان يبايعه، وعبد الله بن عمر أيضًا من الناس الذين اعتزلوا الفتنة فلم يبايع أي أحدًا، وفي قصة طويلة بُويِعَ معاوية بن يزيد

في الشام وبعد أربعين يوم مات، وبُويِعَ عبد الله بن الزبير في مكة، ولما مات معاوية بن يزيد قام مروان بن الحكم، هذه القصة ربما استمرت تسع سنوات، كان عبد الله بن عمر في ذاك الوقت لم يُبايع أي أحد، إلى أن استقر الأمر وبايع عبد الملك بن مروان، قائلًا: (وَأُقِرُّ بِذَلِكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فِيمَا اسْتَطَعْتُ) معنى ذلك أنه أقرّ بالبيعة لأمير المؤمنين، عبد الملك بن مروان أصبح أميرًا للمؤمنين، فأصبح واجب عبدالله بن عمر أن يُقر بالبيعة، وفي كتاب الأحكام قال: "وإن بني قد أقروا بذلك."، وهنا نرى أن هناك نوعين من السمع والطاعة:

- سمع وطاعة مقيد.
- وسمع وطاعة مطلق.

أما السمع والطاعة المقيد: فهو كالشأن الذي نعيشه أن الأمة لوليّها، والمرأة لزوجها والأبناء لوالديهم وهكذا، هذا يعتبر سمعًا وطاعة مقيدًا، مقيدٌ بما أمر الله، أي أنه لا يخالف أمر الله.

أما السمع والطاعة المطلق: فهو السمع والطاعة لله وللرسول -صلّى الله عليه وسلّم-، يعني طاعة مطلقة وهذه لا تكون إلا لله وحده ولرسوله -صلّى الله عليه وسلّم-، فلا يطاع أحد طاعة

مطلقة بدون سؤال ولا نقاش إلا الله -سبحانه وتعالى- ورسوله -صلّى الله عليه وسلّم-، ومثال الطاعة المقيدة: طاعة المحكوم للحاكم، والمأمور للأمير، والزوجة لزوجها، والابن لأبيه، والطالب لمعلمه وهكذا، وهذه تُقيد كلها بالمعروف.

المقصد: أن سنة الله وسنة رسوله -صلّى الله عليه وسلّم- هي العصمة من كل فتنة، خصوصًا في أمور العلاقات مع الناس، يعني حينما يقول عبد الله بن عمر -وهو الفقيه- لعبد الملك بن مروان: (وَأُقِرُّ بِذَلِكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فِيمَا اسْتَطَعْتُ) فهذا يعني أن علاقتي بك مبنية على هذا، سأسمع وأطيع هذا واجب، لكن لا بد أن يكون هذا السمع والطاعة مقيدًا بسنة الله وسنة رسوله -صلّى الله عليه وسلّم-.

فنفهم من ذلك أن التمسك بالسنة عصمة من الفتن خصوصًا في العلاقات، وهذا طبعًا مبنيٌ على العلم، فلا بد أن تعلم ما هي ضوابط العلاقات الشرعية حتى يكون سمعك وطاعتك على سنة الله وسنة رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم- . بهذا نكون انتهينا من المقدمة.

نبدأ في الباب الأول:

الحديث الأول:

بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ -صلَّى الله عليه وسلّم- : "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ"

•حدثنا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم- قَالَ: "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدِي"، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَدْ ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلّم- وَأَنْتُمْ تَلْغَثُونَهَا - أَوْ تَرْغَثُونَهَا أَوْ كَلِمَةً تُشْبِهُهَا.

← الشرح:

هذا أول باب في كتاب الاعتصام، (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ -صلَّى الله عليه وسلّم-: "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ").

ما المقصود بجوامع الكلم؟ هناك قولان لأهل العلم:

القول الأول -انتصر له الشافعي-: أن المراد بـ (بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ) القرآن العظيم. من أي وجه؟ من وجه أن القرآن اجتمع فيه من المعارف والعلوم ما تفرّق حتى في الكتب المنزلة قبله، ولا يُحتاج معه إلى غيره، أي أن القرآن كلامٌ عظيمٌ، بليغٌ، مُعجِزٌ، جامعٌ لأنواع المعارف والعلوم والتشريعات والأحكام

سواء كانت كلية عامة أو تفصيلية، وتأتي السنة تبيّنها وتحققها. فالمقصود بجوامع الكلم هنا القرآن؛ لأن فيه علومًا كثيرة، في جمل وجيزة، وفيما ذُكر -والله أعلم- عن الشيخ الغديان -رحمه الله- أنه كان يجلس من بعد صلاة الفجر كل يوم جمعة يقرأ القرآن فيختم ضحىً، قبل الجمعة! معنى ذلك أن الإنسان في أقل من ست ساعات يمكنه أن يختم قراءة القرآن، فهو من حيث قراءته وجيزٌ، أما من حيث علومه فهو يشمل أحوال الناس من أن نزل إلى أن تقوم الساعة، وهذا وجه كونه وصِف بـ (بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ).

سأذكر لكم حديثًا هنا عن أبي ذرٍّ -رضي الله عنه- قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ : كم المرسلونَ؟! قال: «ثلاثُ مئةٍ وبضعةَ عشرَ؛ جمًّا غفيرًا.»[24]

وفي رواية قال أبو ذرٍّ: قلتُ: يا رسولَ اللهِ كم وفَّى عددُ الأنبياءِ؟ قال: «مائةُ ألفٍ وأربعةُ وعشرون ألفًا، الرسلُ من ذلك ثلاثمائةٍ وخمسةَ عشرَ جمًّا غفيرًا»[25]

---

[24]() أخرجه ابن حبان (361).

[25]() أخرجه أحمد (22288).

وفي رواية أيضًا عن أبي ذر قال: قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ كم كتابًا أنزَله اللهُ؟ قال: «مئةُ كتابٍ وأربعةُ كُتبٍ»[26]

ذكرت لكم هذه الأعداد في رواية الإمام أحمد؛ لتتصوروا أن علوم هذه الكتب كلها مجموعة في القرآن، وعلوم هؤلاء الأنبياء كلهم جُمعت عند النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- .

المقصد: عندما نتكلم عن الاعتصام بالكتاب والسنة، نصل إلى شعور أننا أمام كتاب عظيم؛ بذْل النفس والعمر في سبيله، هو التجارة التي لن تبور! مشروع لا خسارة فيه، حريّ به أن يكون مشروع العمر أيًّا كان عمرك متقدمًا أو لا زلت شابًا، فهذا مشروع العمر؛ لأن الله جمع فيه من الخيرات ما يوافق كل الأزمنة، فمِن أن خلق الله الخلق وكل ما أنزل من علم ومن خير ومن حكمة وموعظة، مجموع في هذا الكتاب! يا للنعمة التي نعيشها! نسأل الله أن يجعلنا من الشاكرين!

وهذا القول له قوته، فلذلك أنت عندما تنظر للحديث: (بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ) وهي نفس الجملة التي بدأ بها البخاري الكتاب، تستطيع أن ترجح القول الأول -إن جوامع الكلم هي القرآن- .

---

[26]() أخرجه أحمد (21546).

القول الثاني -المشهور-: أن المراد بـ (بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ) إنما هو كلام النبي -صلّى الله عليه وسلّم-.

سنرى هنا اشتراك كلام النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، مع كلام الله في مسألة الفصاحة؛ أنت تسمع في كتاب الله: (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)[27]، (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)[28] ، وصِف الكتاب بأنه حكيمٌ وبأنه مبينٌ، حكيم أي: لا يتطرق إليه خلل، كل لفظة فيه محكمة، بحيث أن اللفظة الواحدة تحمل من المعاني الشيء الكثير، وتحمل عددًا من الوجوه، وفي كل زمان يستطيع الناس أن يفهموه وفق أحوال زمانهم من معانٍ، وأيضًا هذا الكتاب وصفه أنه مبينٌ أي: واضح.

وبمثل هذا الفهم انظر إلى سنة النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، فالنبي -صلّى الله عليه وسلّم- أوتي جوامع الكلم، جوامع الكلم يعني كلامه في مكانه مُحكم، وكلامه في غاية البيان والفصاحة. وهنا سنجد علة عليلة عند المتلقّين، وهي أحد وسائل شياطين الإنس والجن: إضعاف اللغة. وإضعاف اللغة يعني إضعاف الدين، معادلة ما تحتاج أبدًا إلى من يشرحها، الواقع يشرحها.

---

[27]() لقمان: 2.

[28]() يوسف: 1.

الشاهد: إن أمام فصاحة الكتاب وفصاحة النبي -صلّى الله عليه وسلّم- هناك أعاجم، وإن كان عرقهم عربيًّا، لكنهم أعاجم! ولتفهم ماذا يريد منك الأعداء، أريد منك أن تفرق بين الكلام العامي واللغة الأجنبية، هناك فرق بين الكلام العامي واللغة الأجنبية. ما الفرق؟ الفرق أن الكلام العامي -الذي هو عامي العربية- مردود إلى اللغة العربية، عامي العربية لا بد أن يكون عائدًا إلى أحد لهجات قبائل العرب، والفصحى هذه لغة اختارها الله لرسوله من بين لغات ولهجات العرب؛ ولذلك سيأتينا في الكلام عن أن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- أوتي جوامع الكلم، أنه أحاط بلغة العرب، وهذه لا يحيط بها إنسان، وقال الشافعي -رحمه الله- : "لا يحيط بها إلا نبيّ." فعامية العرب تردهم إلى اللغة الفصحى، التي هي في القرآن، فلا تقل: "نحن لا نحسن العربية، نحن نتكلم العامية."، العامية مقبولة، الأزمة ليست في العامية، أهم شيء ألا تكتب بالعامية؛ لتبقى لغة الكتابة في مستوى أن أفهم القرآن، لكن في التداول أي كلام نقوله ستجد أنه لا بد أن يعود لأحد اللهجات، ولا بد أن يكون له أصل مثلما نقول في كلامنا العادي: "الإنعاش"، ولها أصل في اللغة، وسيأتي هذا في الأمثلة.

الأزمة في اللغة الأجنبية، أما من جهة دلالتها النفسية: فهي تدل على الهزيمة النفسية، الناس لا يشعرون بعزّة اللغة العربية، بالاعتزاز للانتساب إليها! والله إن هذه أزمة الأزمات، قد مكر بنا أهل الأرض واستقبلنا هذا المكر.

وأما الدلالة الثانية -الخطيرة وهي في غاية الخطورة وخصوصًا حينما يبدأ الصغير باللغة الأجنبية-: فإن المَدَرج الصوتي الذي خلقه الله للإنسان جعل هذه اللغة الفصحى التي اختارها لكلامه هي اللغة الوحيدة التي تحافظ على المدرج الصوتي كاملًا، بحيث أنه لو كان هناك لغة سبقت اللغة العربية أو شاركتها، تتعطل بعض المناطق في المدرج الصوتي؛ ولذلك ترى من تربّى على يد عاملة من الشرق أو الغرب؛ تجده يخرج الأحرف بشكل خاطئ، والسبب أن هذه مخارج داخلية، اللغات تعجز أن تصل إليها، لا تصل إليها إلا هذه اللغة التي اختارها الله -عزّ وجلّ- لكتابه، تكلم بها الله، أليس يكفينا شرفًا أن تكون اللغة التي نتكلم بها هي التي تكلم بها الله -عزّ وجلّ- وتكلم بها رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم-؟! بلى، يكفينا لكن نسأل الله أن يفقه قلوبنا وينعشنا بالقرآن وبالإيمان وبالإسلام وبمحمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- .

الآن نبيّن أن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- أُعطي من الفصاحة والبلاغة ما يجعله يتكلم بالكلام الموجز اليسير البليغ المؤدي إلى المعاني العظيمة، العيب في الـمُستقبِل وسنترك الكلام عن المستقبل الآن، لا بد أن نعلم أن هذه هي الحقيقة.

كون النبي -صلّى الله عليه وسلّم- أوتي جوامع الكلم، يتضح من وجوه:

الوجه الأول: اتفق العلماء جميعًا بل والعرب حتى الكافرين منهم أن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- هو أفصح العرب قاطبة، لم يأتِ قبله ولا بعده أفصح لسانًا منه، وهذا ليس جهدًا بشريًا وإنما عطاءٌ من رب العالمين، النبي بُعث في أمة عربية فُصحاء، وعن عبدالله بن عمر قال: "جاءَ رَجُلانِ مِنَ المَشرِقِ فخَطَبا، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «إنَّ مِنَ البَيانِ لَسِحرًا.»[29]" النبي -صلّى الله عليه وسلّم- هنا يمدح الكلام؛ قالوا كلاما يؤثر في القلوب فالنبي -صلّى الله عليه وسلّم- مدحهم. فالعرب قد أُعطوا تلك اللغة المؤثرة في النفوس لماذا لا تؤثر فينا؟!

[29]() أخرجه البخاري (5146).

الوجه الثاني -كما تبين في أول النقاش- : إن اللغة العربية لغة واسعة، قبائلها لها لهجات، النبي -صلّى الله عليه وسلّم- قد جمع جميع اللهجات فلذلك أوتي جوامع الكلم، وذكرت لكم كلام الشافعي "إنه لم يستوعب أحد من العرب جميع مفردات لسان العرب إلا النبي -صلّى الله عليه وسلّم-" انظر كيف كان يقول النبي لأصحابه الكرام: «وإنَّ مِن أبغضِكُم إليَّ وأبعدِكُم منِّي يومَ القيامةِ الثَّرثارونَ والمتشدِّقونَ والمتفَيهِقونَ، قالوا: يا رسولَ اللَّهِ، قد علِمنا الثَّرثارينَ والمتشدِّقينَ فما المتفَيهقونَ؟ قالَ: المتَكَبِّرونَ»[30] فهنا تفهم أن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- أتى بهذه اللهجة من اللهجات العربية التي ما يعرفها الحاضرون والنبي -صلّى الله عليه وسلّم- يعرفها، "فأوتي جوامع الكلم" أي: في لهجات العرب.

الوجه الثالث -وهو في غاية الأهمية-: أن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- قد أُعطي قوة على إنشاء تراكيب لم تكن، مثلما قال في إحدى الغزوات: «الآنَ حَمِيَ الوَطيسُ»[31] فهذه الجملة من كلام النبي -صلّى الله عليه وسلّم- أصبحت مثلًا، ولم تُعرف قبله -صلّى الله عليه وسلّم- وعندما تقرأ الرواية تجد الصحابي الذي

---

[30]() أخرجه الترمذي (2018).

[31]() أخرجه أحمد (1776).

نقل هذه الجملة لما سمعها من النبي -صلّى الله عليه وسلّم- انشغل عن المعركة بالتفكير فيها! يا لها من جملة! وبهذا تفهم العرب أن اللغة عندهم عالية لدرجة أن الصحابي شغلته الجملة في داخل المعركة، أنه أخذ يتأمل في التركيب. الكلام عن مثل هذه الأمثلة يحتاج إلى زمن؛ لنتأمل التراكيب التي أتى بها النبي -صلّى الله عليه وسلّم- ولم تكن معروفة، وغالبها جرت مثلًا على لسان الناس.

إذًا جوامع الكلم:

- إما تكون القرآن.
- وإما كلام النبي -صلّى الله عليه وسلّم-.

وفي كلام النبي -صلّى الله عليه وسلّم- تبين لنا الثلاثة أوجه التي بها أوتي النبي -صلّى الله عليه وسلّم- جوامع الكلم.

مشاركة/.....

بهذا نكون انتهينا من الحديث الأول.

ننتقل للحديث الثاني:

- حدثنا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ -صلَّى الله عليه وسلّم- قَالَ: "مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أُومِنَ - أَوْ آمَنَ -

عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

← الشرح:

هاتان الجملتان تشيران إلى أن هذه سنة الله؛ سنة الله أنه لا يترك النبوة يدّعيها كل من أراد، وإنما يبعث الأنبياء ومعهم الآيات الدالة عليهم، ولذلك قال:

(مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ) هنا بُنيت لما لم يُسمَّ فاعله والمعطي هو الله.

(مِنَ الْآيَاتِ) يعني من البراهين الدالة على نبوّته لأن الله لا بد أن يؤيد أنبياءه بالبراهين، وإلا أصبحت النبوة دعوى.

(مَا مِثْلُهُ أُومِنَ) أومِن يُقصد به من الأمان من الأمن.

(أَوْ آمَنَ) وهي الصواب، يعني آيات تؤدّي إلى الإيمان، ويمكن الجمع بين الأمرين؛ لأن الإيمان يؤدّي إلى الأمن قطعًا، وهما من مادة واحدة، الإيمان يؤدي إلى سكون القلب وقراره وتيقّنه ودفع الريب ودفع القلق، والريب والقلق خلاف الأمن، فبهذا يمكن الجمع بين الأمرين.

(وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ) عندما يقارن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- نفسه ببقية الأنبياء، أولًا لا بد أن تعرف أن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- عنده آيات كثيرة: شُقّ له القمر، وكلمه الحصى؛ سبّح بين يديه، بركته في الماء. كثير بل إن بعض أهل العلم قالوا: "إنه ما أُوتي نبيٌّ آية إلا وأُوتي النبي -صلّى الله عليه وسلّم- مثلها أو شبيه بها"، لكن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- ترك هذا كله وجعل الآية البيّنة الخالدة الباقية هي القرآن؛ ولذلك هذا بيان (بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ) ، فالقرآن هو أكبر دليل وآية على نبوته.

نتيجة هذا الأمر: (فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) لاحظ هذه النتيجة المهمة؛ أن هذا القرآن هو سبب الفتح على الخلق، لو تُرك الخلق والقرآن لآمنوا، وهذا الذي تسمعه في حكايات كثيرة تُذكر عمن أسلموا، أنهم ما احتاجوا شرح الداعي، فقط قرأ عليهم القرآن، فالواقع الذي نعيشه يشهد على ذلك؛ أن الناس يتأثرون بنفس القرآن.

ما الواجب علينا باختصار؟ الواجب علينا أن يكون القرآن -كما ندعو- ربيعًا لقلوبنا. كيف أصل إلى أن يكون ربيعًا لقلبي؟ بمادة اللغة، ثم إذا أردت أن تدعو إلى الله، علّم الناس أولًا اللغة،

إذا أردت أن تدعو إلى الله، فالمطلوب مراكز تعلم غير الناطقين اللغة، يعني هذه هي الدعوة الحقيقية؛ أن تدعو الناس عن طريق اللغة؛ لأن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- بُعِث بجوامع الكلم.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته